(اديرة لبني طيّ) والى طيّ يُنسب دير سِلْسة الذي كان في جهات الكوفة قبل الاسلام وهو سلسة بن غنم بطن من طيّ (اطلب تاريخ الطبري ج ١ ص ٢١٠٣) وهناك كان دير حُرَقة ودير امّ عمرو

من بيروت الى الهند

للاب لويس شيخو اليسوعي (تابع)

١١ الموصل

كان اوّل فكرنا بعد حلولنا في دير الآباء الدومنيكيين الاجلّاء ان نشكر الله الذي اوصلنا سالمين الى الموصل وزاد شكرنا لعزّته تعالى انّنا علمنا وقتئذٍ شيئاً من الاهوال التي حاقت بجهات ديار بكر وما بين النهرين حيث كنّا سائرين مطمئنين والدماء تسيل حولنا ونحن لا ندري

وبعد اقامتنا الفرائض الدينيّة اجتمعنا بآباء الدير وتبادلنا ملياً عبارات الاخاء والوداد ثمّ زرنا معاهد مقامهم وما يلحق به من الابنية المجاورة كالمطبعة والمدارس ولا سيما المدرسة الاكليريكيّة التي يديرها الآباء بكل اهتمام

وبُعَيد الظهر اسرعنا الى تقديم واجبات الوقار والاكرام لغبطة السيّدين البطريركين جرجس عبد يشوع خيّاط بطريرك الكلدان على بابل واغناطيوس بهنام بنّي بطريرك انطاكية على السريان فتشرّفنا بلثم راحاتهما والتماس بركتهما وكان استقبال غبطتهما لنا كاستقبال اعطف الآباء بل تلطّفت كلامهما ودعانا الى مأدبة فاخرة مع حضرة رئيس الآباء الدومنيكان فكاد هذا اللطف يخجلنا لولا علمنا بانّ السيّدين الجليلين (طيّب الله ضريحهما) ارادا ان يكرما في شخصنا الحقير الرهبانيّة اليسوعيّة فشكرنا لهما تعطّفهما باسم حضرة رئيسنا العام

وكذلك حظينا بشرف المثول لدى سيادة المطران يوسف اليّا خيّاط الكلداني اسقف العمادية والمطران بولس دانيال السرياني اسقف دارا شرفاً . وكان سيادة القاصد الرسوليّ على ما بين النهرين وكردستان السيّد هنري التايو وقتئذٍ غائباً من

الموصل فقدّمنا لوكيله حضرة الاب اغوسطين صائغ مراسيم التجأة ودرنا بصحبته في انحاء دار القصادة التي وجدناها جديرة بمقام ممثل الكرسيّ الرسوليّ . ورأينا في الديران صور القصّاد السابقين وفي جملتهم سيادة القاصد مبارك بلنشه الذي خلّد له ذكرًا طيّبًا في الموصل باعماله المبرورة . ورأينا في الموصل شيوخًا يثنون على مشروعاته ويذكرونهُ بالخير مع الآباء يوسف لابورد ولويس كانوني وبولس ريكادونًا ومنصور (مكسيليان) ريلُو ولكلّهم مآثر خلّفوها في حاضرة كردستان . ولمّا اقتوا المهمّة التي عُهدت اليهم عادوا الى الشام بعد ان سلّموا تلك الرسالة الى حضرة الآباء الدومنيكيين الفرنسويين بدلًا من الايطاليين الذين تولّوا تدبيرها سابقًا

الموصل من المدن المنشأة في عهد الدولة الاشكانيّة كما هو مرجّح وقيل قبلها فخلفت مدينة نينوى التي كانت واقعةً على ضفة دجلة اليسرى فبُنيت الموصل على ضفة هذا النهر اليمنى وانّما اختلفوا في تسميتها بالموصل وقد وصفها ياقوت الحمويّ في زمانه فقال واحسن (معجم البلدان ٤ : ٦٨٢—٦٨٣)

الموصل المدينة المشهورة العتيقة احدى قواعد بلاد الاسلام قليلة النظير كبرًا وعظمًا وكثرة خلق وسعة رقعة فهي محطّ رحال الركبان ومنها يُقصَد الى جميع البلدان فهي باب العراق ومفتاح خراسان ومنها يُقصَد الى اذربيجان . وكثيرًا ما سمعتُ انّ بلاد الدنيا العظام ثلاثة نيسابور لانّها باب الشرق ودمشق لانّها باب الغرب والموصل لانّ القاصد الى الجهتين قلّ ما لا يمرّ بها . قالوا سُمّيت بالموصل لانها وصلت بين الجزيرة والعراق وقيل وصلت بين دجلة والفرات وقيل لانها وصلت بين بلد سنجار والحديثة وقيل بل الملك الذي احدثها كان يسمّى الموصل (كذا !) . وهي مدينة قديمة الاسّ على طرف دجلة ومقابلها من الجانب الشرقيّ نينوى . . . قال حمزة : كان اسم الموصل في ايّام الفرس نواردشير او بواردشير بالنون او الباء ثم كان اوّل من عظّمها والحقها بالامصار العظام وجعل لها ديوانًا برأسه ونصب عليها جسرًا ونصب طرقاتها وبنى عليها سورًا مروان بن محمّد بن مروان بن الحكم آخر ملوك بني امية المعروف بمروان الحمار والجعديّ . وكان لها ولاية ورساتيق وخراج مبلغهُ اربعة آلاف الف درهم والآن فقد عمّرت وتضاعف خراجها وكثر دخلها . . . وكثيرًا ما وجدتُ العلماء يذكرون في كتبهم انّ الغريب اذا اقام في الموصل ستّة تبيّن في بدنه فضل قوّة . . . وما علم لذلك سببًا الّا صحّة هواء الموصل وعذوبة مائها . . . وليس للموصل عيب الّا قلّة بساتينها وعدم جريان الماء في رساتيقها وشدّة حرّها في الصيف وعظم بردها في الشتاء . فامّا ابنيتهم فهي حسنة جيّدة وثيقة بهيّة المنظر لانّها تُبنى بالنورة والرخام ودورهم كلها انماج ومراديب مبنيّة ولا يكادون يستعملون الخشب في سقوفهم البتّة وقلّ ما عُدم شيء من الخير في بلد من البلدان الّا ووُجد فيها . . . »

فترى من هذا الوصف ما كانت عليه الموصل في القرون الوسطى بهيئة ملوكها بني حمدان التغلبيين ثمَّ توالت عليها الدول الاسلاميَّة من بني عُقَيل ثمَّ بني مروان ثمَّ السلجوقيين ثمَّ الايوبيين الى أن تغلَّب عليها المغول وخلفهم التركمان والعجم فنازعهم في ملكها بنو عثمان وولَّوا عليها الآغوات الذين اذاقوا اهلها امرَّ الشدائد فأنقذهم منها في اواسط القرن الماضي محمَّد باشا واليها بعد انتصاره على اولئك المستبدين الظالمين وتعميمه للامن والعدل فلمَّا مات بكاه الجميع كأعزّ الاصدقاء.

والموصل اليوم لا تشبه في شيء الوصف الذي وصفهُ بهـا ياقوت فترى ازقَّتها ضيِّقة وسخةً وبيوتها متراكمة بلا هندسة ولا نظام لا يزينها شيء من النوافذ الواسعة والطنف الجميلة فيضيق الصدر بسكناها

على انَّ بعض الاجانب والمثرين من اهلهـا اخذوا منذ بضع سنوات يبنون البيوت الرحبة والدور المتقنة الهندام والابنية العموميَّة المستطرفة كالمجلس والثكنة العسكريَّة ودار الولاية وبعض الكنائس والجوامع ومنازل الخاصَّة

امَّا الآثار القديمة فلم يبق منها الَّا القليل فمن جملتهـا بعض الخانات والمساجد والكنائس اخصُّها كنيسة الكلدان المعروفة بمسكيتا وبعض كنائس السريان واليعاقبة

والموصل يبلغ عدد اهلها اليوم نحو ٨٠,٠٠٠ نسمة ثلثاهم مسلمون وهم من بقايا القبائل العربيَّة القديمة والثلث الآخر من بقيَّة الامم والطوائف بينهم ١٠,٠٠٠ من كاثوليك الكلدان والسريان والارمن والباقون يعاقبة وبروتستانت ويهود

وموقع الموصل على ربوة لا تعلو فوق سطح مياه البحر الَّا ١٠٦ امتار فيقرى فيها الحرّ حتى يبلغ في الصيف ٤٥° من المقياس المئوي بـل يتجاوزها الى الدرجة الخمسين والمدينة مع ذلك طيبة الهواء . وفي لغة اهلها مسحة من لغـة الاعراب ولاسيما في سنجقيها كركوك والسليمانيَّة وباديَتها

وكانت الموصل سابقاً مشهورة بمنسوجاتها وباسمها شاعت في اوربَّة الموصليَّات (mousselines) من الانسجة القطنيَّة الرقيقة الصنع مع متانتها . وكذلك بقيَّة صنائعها فكان اهلهـا يصطنعون الحليّ والمصاغات والاسلحة والطنافس . وكان في ولاية الموصل معادن يُستخرج منها الذهب والفضَّـة والنحاس لكنَّها أُهملت بعد ذلك لقلَّة الوسائط لاستثمارها . وهناك ايضاً مناجم من الفحم الحجريّ ومن

الكبريت ومنابع القير والنفط والملح المعدني وكلها كثيرة الجدوى طائلة الارباح لولا انَّ الحكومة لم تنشط الجمعيَّات المنعقدة لترويجها . وكذلك تكثر فيها المياه المعدنيَّة التي تصلح لعلاج بعض الامراض شرباً او استحماماً

وولاية الموصل غنيَّة ايضاً بمحصولاتها الزراعيَّة فانَّ تربتها من اجود الترب لا سيما اذا حُفرت فيها القنيّ لريّها كما فعل البابليُّون والعجم . وغلَّاتها وافرة تكفي لاهلها وتزيد عنهم كثيراً . وفي مفاوزها سائمة المواشي التي يرعاها الاكراد والعربان ويصدر منها الالوف المؤلفة الى البلاد الاجنبيـة وتُتَّخذ جلودها واصوافها فتُدبغ وتُصبغ ويستحضر منها ضروب الاكسية . وهناك ايضاً وحوش ضارية ذكرها الاقدمون كالاسد والنمر والببر والنمامة لكنها اليوم قد بادت منها وبقي في بواديها الضباع والذئاب والدبب والثعالب والوعول والايائل

وهذه الولاية اغنى من سواها بالحفريَّات القديمة ومنها استخرج ارباب العاديَّات كنوزاً من الآثار التي تزدان بها متاحف اوربَّـة . كفي منها بذكر نينوى التي تُرى بازاء الموصل فانَّ الحفريَّات التي اجراها هناك كبار الاثريين كالسير برتا (Botta) ولايار (Layard) ففي قسمها المعروف بكوينجيك اكتُشف قصر ملوك نينوى الذي رمَّمهُ سنحاريب بن سرغون . ثمَّ عقبهما السير لفتوس (Loftus) ورسام (Rassam) فاكتشفا قصرين آخرين فخيمين قصر اسارحدُّون بن سنحاريب وقصر اشوربنيال بن اسارحدون ووجدت هناك كتابات اشورية على الآجرّ في عدد ٢٠,٠٠٠ قطعة نصفها اليوم في متحف لندن البريطاني . ولما توفَّق المستشرقون الى حلّ لغز الكتابة الاشوريَّة انفتح امام العلماء عالم جديد وعرفوا من اخبار قدماء الامم الراقية الى مهد البشريَّة ما كانت طمستهُ كوارث الحدثان وبقي دفيناً في قلب الارض

وعلى هذه الاطلال قائم في عهدنا المشهد المعروف بنبي يونس فيزعم اهل الموصل انَّ يونان النبي بعد انذاره سكَّان نينوى وودّ غضب الله عنهم لحسن توبتهم توفي وقُبر هناك . وصوم نينوى الجاري في كنائس الشرق منسوب الى تلك الواقعة

امَّا حالة الموصل الادبيَّة فكانت قديماً حسنةً يشهد عليها العدد العديد ممَّن خرجوا منها فخدموا العلوم والآداب منهم نصارى كتوما المرغاوي النسطوري

مؤلف تاريخ الولاة بالكلدانيَّة واسحاق النينوي صاحب التآليف الدينيَّة والفلسفيَّة المتعدّدة وحنا الحادياني احد اساتذة مدرسة نصيبين وغيرهم . ومنهم مسلمون كبني الاثير وكانوا ثلاثة اخوة اشتهروا كلهم بالتأليف فواحد منهم مؤرخ شهير اسمهُ عزّ الدين علي والآخر اديب فاضل يدعى بضياء الدين محمد والثالث برزَ باللغة وعلوم الدين يُسمَّى مجد الدين مباركاً اصلهم من الجزيرة وانتقلوا الى الموصل . ومن الموصل كان ابن خلكان صاحب وفيات الاعيان . وبهاء الدين بن شدَّاد كاتب صلاح الدين الأيوبيّ ومترجم سيرتهِ . وابراهيم الموصلي وابنهُ اسحاق نديما هارون الرشيد الشهيران بفنّ الغناء والموسيقى

اما الآداب في الموصل الحاضرة فانَّها كانت في منتصف القرن السابق بلغت النهاية من التقهقر والانحطاط . فلمَّا احتلَّها المرسلون الدومنيكيُّون الفرنسويون واستقرَّ فيها قدمهم صرفوا جلَّ عنايتهم في تهذيب الاحداث فتتحوا المدارس التي تُعدّ اليوم في مقدّمة دور التعليم في تلك الجهات . وللآباء المرسلين ما عدا مدرستهم الكبرى التي يدرّسون فيها العلوم الثانويَّة مدرسة اكليريكيَّة انشأوها سنة ١٨٨٢ لتثقيف المترشحين للدعوة الكهنوتية من سريان وكلدان تخرَّج فيها عدَّة كهنة فضلاء ثمَّ مدارس ابتدائية ومياتم . وتساعدهم في تعليم الاناث راهبات من الرهبانيَّة الدومنيكيَّة الثالثة يُعرَفنَ براهبات التقدمة (Sœurs de la Présentation de Tours) يتولينَ تدبير مدارس البنات وعدَّة اعمال خيريَّة منها ميتمٌ للصغار ومستشفى للمرضى ودار للقطاء

وقد اقتدى بالمرسلين ارباب الطوائف الكاثوليكية ففتحوا ايضاً المدارس لتهذيب احداث ملتهم واخصّ هذه المدارس مدرسة الاكليريكية للكلدان رقيت بعد خمولها بهمَّة غبطة البطريرك الحالي عمانوئيل يوسف توما

وللمسلمين ايضاً في الموصل مدارس ابتدائية لاحقة بالجوامع . كما ان الحكومة تدير فيها مدرسة رشديَّة

اما الطباعة الموصليَّة فانَّنا قد سطرنا تاريخها في السنة ١٩٠٣ وهي الخامسة من المشرق (٥ : ٤٢٢ و ٨١٠) وبيَّنا فضل مطبعة الآباء الدومنيكيين وما ادَّتهُ من الخدم للتعدّدة للدين والآداب في العراق وما بين النهرين في العربيَّة والكلدانيَّة

والسريانيَّة والتركيَّة والفرنسويَّة. وكذلك ذكرنا المطبعة الكلدانية ومطبعة الحكومة

وقد اجتمعنا مدَّة اقامتنا في الحدباء باماثلهـا المعروفين بتضلُّعهم في العلوم والآداب لا سيما غبطة بطريرك الكلدان الشهير بطول باعـهِ في اللغتين الكلدانيَّة والعربيَّة مع ما لهُ فيهـا من المآثر وقد اطلعنا غبطتهُ على ما في القلَّاية البطريركية من المخطوطات وكثيرًا ما كان ارسل للمستشرقين الاوربيين من التآليف الغزيرة الوجود فنشروها بالطبع

وكذلك زرنا بعض شيوخ المسلمين المشـار اليهم لمعارفهم الادبيَّة وبواسطتهم وقفنا على ما في بعض الجوامع من المخطوطات القديمـة بل امكنَّا ان نحصل عند بعض الباعة قسمًا صالحًا من التآليف الخطيَّة المحفوظـة اليوم في خزانة مكتبتنا الشرقيَّة بعضها ادبيَّة وشعريَّة وبعضها تاريخيَّة ودينيَّة لكتبة نصارى ومسلمين

ومع اهتمامنا بالتقاط تلك الآثار ودرس تاريخ الموصل الادبي رأينا من الأولى ان نحيط علمًا بدين اهلها الكاثوليك

كانت الكثلكة بعـد انتشار البدعتين النسطوريَّة واليعقوبيَّة في بلاد العراق والجزيرة اضحت في حالة حرجة لبعـد تلك الاقطار عن مركز الوحدة وعناية خلفاء هامة الرسل. لكن ارباب تلك الكنائس منذ القرن الثالث عشر اخذوا يوجهون انظارهم الى امّ المدائن ويرسلون صورة ايمانهم للاحبار الرومانيين كبريشوع الخامس ويابالاها الثالث طالبين من الكرسيّ الرسولي الشركة معهُ بالمعتقد الى ان قام يوحنَّا سولاقا في اواسط القرن السادس عشر ثمَّ كثير من اخلافه. وقد عدَّد سيادة المطران بطرس عزيز تلك المساعي الصالحة للتقرُّب من الكنيسة الرومانيَّة في مقالة مستجادة نشرها في السنة الخامسة من المشرق ١٩٠٢ (٥: ١١١٥) يتَّضح منها فضل اهل الموصل في ارتدادهم الى الكنيسة المقدَّسة

وكذلك السريان اليعاقبة في الموصل ادركوا ضلالهم من وقت الى آخر فسعوا في الرجوع الى حظيرة الايمان الصحيح كالمفريان اغناطيوس داود الخيشوميّ الموصلي في القرن الثالث عشر الذين جاهر بخضوعهِ للكرسيّ مع المفريان باسيليوس يوحنَّا بن المعدنيّ ومثلهما في القرن الرابع عشر للمفريان غريغوريوس متَّى حنُّو الموصليّ (١٣١٧ — ١٣٤٥) ثمَّ المفريان باسيليوس بهنام الحدليّ الذي حضر سفيرهُ الى رومية فقرَّر

باسمه خضوعهُ للحبر الروماني سنة ١٤٤٤ . وكذلك الفريانان باسيليوس نعمة الله اصغر وابن اخيه باسيليوس بطرس اصغر وكلاهما في القرن السادس عشر تردَّد في الرجوع الى الكثلكة وتقلَّبا مع الريح

على انَّ هذه الارتدادات بقيت متذبذبةً متقطعة فلم تثبت حتى قدم المرسلون الكبُوشيون الفرنسويون الى الموصل في اواسط القرن السابع عشر فكان دخولهم فيها في اواخر سنة ١٦٣٧ فاخذوا هناك يفلحون كرم الرب بكل نشاط وداوموا على ذلك نحو مئة سنة وبهمَّتهم ارتدَّ قوم من النساطرة واليعاقبة الى حجر الكنيسة منهم الفريان طيموثاوس عبد الجليل الذي انضمَّ بارشادهم الى الايمان سنة ١٦٣٧ . ومنهم الفريان باسيليوس اسحق بن جُبر الذي دوَّن ترجمتهُ في المشرق (١١ : ٢٨٦) سنة ١٩٠٨ حضرة القس اسحاق ارملة ومنهم ايضاً القس خدر الكلداني الذي نشرنا رحلتهُ من الموصل الى رومية سنة ١٦١٠ في المشرق (١٣ : ٥٨١ الخ)

ولمَّا اضطرَّت الاحوال الآباء الكبُوشيين ان يبارحوا الموصل خلفهم فيها سنة ١٧٥٠ الآباء الدومنيكيُّون بامر الكرسيّ الرسوليّ وباغراء القس خدر السابق ذكرهُ . وكان اصلهم من الطليان واولهم الابوان طورياني (Turriani) وكوديلنشيني (Codeleoncini) وصلا الى الموصل في ايَّام مضطربة جدًّا فانَّهما وجدا عبَّاس الثاني شاه العجم وبعض الاغوات المستبدين يتنازعون ملكها على انهما لم ييأسا بل اخذا يتعلَّمان لغة البلاد وتردَّدا الى الاهلين بسل الى الحكام والامراء بتطبيب مرضاهم ومعالجة اسقامهم ففتحا لهما بالطبّ طريقاً الى القلوب ثمَّ خلفهما غيرهما فاشتهر منهم الآباء لانتزا (Lanza) الذي تعيَّن مدَّة كقاصد رسولي في بلاد الشام وصولديني (Soldini) وغارتزوني (Garzoni) ولكلهم مآثر مشكورة اخصُّها هداية بعض القرى المجاورة للموصل كالقوش وبطنايا وتلّ اسقف وتلّ كيف وهم اوَّل من طاف جبال النساطرة وكردستان فكانوا ممَّن زرعوا بالدموع ليحصد بعدهم خلفُهم بالترنيم . على انَّ الكنيسة الكاثوليكيَّة اخذت تتوطَّد شيئاً فشيئاً في القلوب فكانت الموصل بعد حلب المهد الثاني للكثلكة في الشرق . واليوم تراها زاهيةً زاهرةً يثني المرسلون على تُقى اهلها . وقد جمعوا قواهم الى مساعي الاكليروس الشرقيّ لردّ ما بقي هناك من المنفصلين عن كنيسة المسيح لاسيما النساطرة الذين في هذه السنين

الاخيرة اقلعوا عن اضاليلهم ليعترفوا بالايمان المستقيم ولميف الكهنة يتنافسون في عمل الخير تحت نظارة رُعاتهم الغيورين. فللكلدان خورنيَّتان كبيرتان وعدَّة كنائس اقدمها كنيستهم الكاتدرائيَّة على اسم الشهيدة مسكينة او مسكيتا ثمَّ كنيسة مار ايشوعياب وكنيسة العذراء الطاهرة على ضفَّة دجلة ومصأيات عديدة وديران على اسم مار ميخائيل ومار ايليا الجديد غربيّ الموصل وجنوبيها . قيل انَّ عدد الكلدان في هذه الابرشية البطريركيَّة وحدها مع القرى الكاثوليكيَّة المجاورة لا يقلّ عن ٢٥,٠٠٠. وكذلك للسريان الكاثوليك ثلث كنائس: الطاهرة ومار آحودامما ومار توما ولهم قريباً من الموصل دير شهير تجري فيه عدَّة كرامات على اسم الشهيد مار بهنام . وهم اليوم في ولاية الموصل نحو ١٠,٠٠٠ وقد اشتهر بينهم رجال افاضل تشرَّفت بهم ملَّتهم كالطبيب الذكر البطريرك انطون سحيري والكثير الآثر السيِّد اقليميس يوسف داود وغبطة بطريركهم الحاليّ الذي احرز لهُ بمصنَّفاته الذكر الجميل بين علماء عصره

هذا بعض ما قرَّ به نظرنا مدَّة اقامتنا في الموصل وكان يودّنا ان نتجوَّل في ارباض المدينة ونتفقَّد اديرتها ومزاراتها لولا قصر وقتنا واضطرارنا بمواصلة سيرنا الى بغداد (لهُ بقيَّة)

وزن فَعُول في العربيَّة

نبذة لغوية للاب لويس ترقال اليسوعي

انَّ كتب اللغة في العربيَّة مع سعتها وضخم اجسامها لا تزال مخأة في اشياء كثيرة لم ينتبه اليها ائمَّتهم او اشاروا اليها اشارةً خفيفة لا تكاد تفي بالمقصود . فينبغي علينا الشكر للمستشرقين الذين لا يدَّعون باباً الَّا طرقوهُ وحجاباً الَّا مزَّقوهُ

فمن جملة تلك الابحاث درسهم للاوزان العربيَّة من اسماء وافعال فانَّهم اتَّسموا فيها وقابلوها باوزان اللغات الساميَّة الشقيقات فاستفادوا من هذه المقابلة فوائد جمَّة لبيان اصل تلك الاوزان وتركيبها واغراضها. فممَّا نشروهُ منذ عهد قريب كتاب